سر التوبة
في الطقس البيزنطي الأرثوذكسي

الأسقف د. يوحنَّـــــا يـــازجي

حديث في جامعة الروح القدس – الكسليك، من ضمن سلسلة محاضرات "سر التوبة" للعام ٢٠٠١
الاثنين ٢٠٠١/٣/٥

مقدمـــة

أولاً: التوبة سر المصالحة

١- تدبير الله من أجل خلاص الإنسان

٢- الكنيسة هي جسد المسيح الحامل الحياة

٣- جذور التوبة في العهد القديم

٤- التوبة في العهد الجديد

٥- التوبة سر تحرّر الذات وانطلاقها نحو الملكوت

ثانياً: ممارسة سر التوبة في حياة الكنيسة

١- في أيام الرسل

٢- في القرن الثانـــي

٣- في القرن الثالث وحتى السادس

٤- في القرن السابع وحتى الخامس عشر

٥- منذ القرن السادس عشر

ثالثاً: ترتيب خدمة الاعتراف في الشكل الليتورجي البيزنطي

خاتمـــة

أشكر أولاً قدس الأب هاني مطر مدير معهد الليتورجيا، الذي طلب مني أن ألقي هذا الحديث عن التوبة في هذا الصرح الكريم

نحن في بدايات الصوم الأربعيني الذي يهيِّئنا للفصح المجيد. لذا، يجدر بي أن أستهلَّ كلمتي بأقوال المرنّم التي نرتّلها في آحاد التريودي في كنيستنا الأرثوذكسية: "إفتح لي أبواب التوبة يا واهب الحياة، لأن روحي تبتكر إلى هيكل قدسك"

علَّنا، معشرَ الذين اصطبغوا بالمسيح يسوع، ونحن في مطلع الألفية الثالثة للتجسد الإلهي، نتوب إليه ونتَّضع فنكون واحداً "كنيسة مجيدة لا عيب فيها ولا دنس"، كما يريدها سيِّدها "عمود حقّ" منتصباً في التاريخ يحمل الحياة

مقدمـــــة

التوبة هي عودة إلى الله نابعة من الإيمان أن معنى الوجود الإنساني يكمن في أحضان الله، وأن انعطاف الله إلينا يفوق انعطافنا نحو شهواتنا. التوبة هي ثمرة اللقاء مع الله، ذاك اللقاء الذي يطبـــع الحياة بكل نواحيها ويُضفي عليها اليقين بأن حقيقة الله تفوق أية حقيقة أخرى. التوبة هي اعتراف بأن الإنسان يحيا بمقدار ما يغتذي من الحب الإلهي، وبأنه اتَّخذ الموت سبيلاً لملاقاة وجه الســـيد، الذي أقامنا مسمِّراً الموت على الصليب وواهباً الجميع قوة القيامة

هذا هو موضوع حديثي معكم هذا المساء

يمكننا، بالطبع، أن نتكلم كثيراً عن سر التوبة: تعريف السر وتأسيسه. جـــذوره الكتابيـــة وموقعه في التدبير الإلهي. شروط إتمامه ومَن الذي يتممه ومَن يشترك فيـــه. مفاعيلـــه ونتائجـــه. القوانين الخاصة بالتائبين ومفهومها. الأشكال المختلفة لممارسة التوبة في الكنيسة... الخ

لكني سأتوقف في حديثي، هذه العشيّة، على ثلاثة محاور في ثلاثة أقسام:

في القسم الأول، نرى كيف أن التوبة سرّ مؤسس من الله لخلاص الإنســـــان، ينـــدرج في برنامج عمل تدبيره الإلهي، منذ خلق الإنسان وبعد سقوطه، ليجعله وارثاً معه في مجـــــده. كمـــا نرى جذور هذا السر في الكتاب المقدس، وكيف أن التوبة هي سر مصالحة الإنسان مع الله ومـــع ذاته ومع القريب

في القسم الثاني، نرى كيف عاشت الكنيسة كجماعة سر التوبة، ونتعرّف علـــى طريقـــة ممارستها في المراحل التاريخية المختلفة انطلاقاً من العصر الرسولي وحتى أيامنا

في القسم الثالث، نتعرّف على ترتيب خدمة الاعتراف في الشكل الليتورجـــي (المعـــروف بالبيزنطي) والمعمول به في الكنيسة الأرثوذكسية، وفق المخطوطات والمصادر القديمة

أولاً: التوبة سر المصالحة

١- تدبير الله من أجل خلاص الإنسان:

"وقال الله: لنصنع الإنسان على صورتنا ومثالنا، وليتسلّط على أسماك البحر وطيور السماء والبهائم وجميع وحوش الأرض وجميع الحيوانات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته" (تك ١:٢٦-٢٧)

خلق الله الإنسان إذاً ونفخ فيه من روحه وأكرمه وجعله على صورته، وأقامه حراً وسيداً وأراده أن يكون شريكاً له في مجده، لكن الإنسان زاغ وابتعد عن الحب الإلهي وأراد أن يكون إلهاً دون الله [١]، فابتعد عن خالقه وسقط في عبودية الخطيئة، التي تملّكت في طبيعته وأفسدت صورة الله فيه، فتغرَّب الإنسان عن الحياة الحقيقية والوجود واندسَّ فيه الموت الروحي وكل نتائجه مثل البلى والفساد والميل إلى الخطيئة وموت الجسد، و لم يعد قادراً أن يحلّ بذاته قيود هذه العبودية

الله، الذي أحب الإنسان وخلقه على صورته، لم يهمله عندما سقط بل وعده بمخلّص يسحق رأس الحية [٢]، وقد حقّق الله وعده بإرساله الأنبياء والرسل وبتجسد ابنه الوحيد في كمال الأزمنة ليفتدي الإنسان ويعيد جبلته آدماً جديداً متألّقاً بصورة خالقه. صالح ابن الله المتجسد الإنسان مع الله عندما رُفع على الصليب وسفك دمه وداس الموت وقام منتصراً، ففتح للإنسان من جديد أبواب الملكوت وصارت قيامته عربون قيامتنا "فإنَّك (يا الله) لم تُعرِضْ إلى الأبدِ عن جبلَتِكَ التي صنَعْتَها، أيُّها الصالح، ولَمْ تنسَ عملَ يدَيْك، بَل افتقَدْتَهُ على أنواعٍ كثيرةٍ بأحشاءِ رحمتِك. فأرسلتَ الأنبياء، وصنعتَ المعجزاتِ على أيدي قدِّيسيك، الذينَ أرضَوكَ جيلاً بعدَ جيل، وكلَّمتَنا بأفواهِ عبيدِكَ الأنبياء، وسبقتَ فبشَّرتَنا بالخلاصِ الآتي. وأعطَيْتَنَا ناموساً يُعِينُنا، وأقمتَ ملائكةً يحرُسونَنا

ولَمَّا حانَ كمالُ الأزمنة، كلَّمْتَنا بابنِكَ نفسِه، الذي بهِ صنعتَ الدُّهور. الذي، وهو ضياءُ مجدِكَ وصورةُ أقنومِكَ وحامِلُ الجميعِ بكلمةِ قدرتِه، لم يعتدَّ مساواتَهُ لك، أيُّها الإلهُ الآب، اختلاساً. بل، على كونِهِ إلهاً أزليّاً، شُوهِدَ على الأرض، وخالطَ الناس. وبتجسُّدِهِ من البتولِ

---

[١] - راجع تك ٣:٥

[٢] - راجع تك ٣:١٥

القدِّيسة، أخلى ذاتَهُ آخِذاً صورةَ عبد، صائراً مُشارِكاً لنا في جسدِنا الوضيع، ليجعَلَنا شـــركاءه في صورةِ مجده. فإنَّه، لَمَّا كانت بالإنسانِ قد دخلتِ الخطيئةُ إلى العالم، وبالخطيئةِ الموت، رَضِـــيَ ابنُكَ الوحيد، الكائنُ في أحضانك، أيُّها الإلهُ الآب، أن يُولَدَ مِن امرأةٍ هي القدِّيسةُ والدةُ الإلـــهِ الدائمةُ البتوليَّةِ مريم، وأَنْ يَخضعَ للناموسِ لِيَدينَ الخطيئةَ بجسدِه، حتى إنَّ المائتينَ بآدمَ يَحْيَـــوْنَ في مسيحِك نفسه. وإِذْ عاشَ في هذا العالم، وأعطانا أوامرَ الخلاص، أبعدَنا عن ضلالِ الأوثان، وَهَدانا إلى معرفتِك، أيُّها الآبُ الإلهُ الحقيقي، مُقْتَنياً إيَّانا لذاتِهِ شعباً خاصّاً، كهنوتاً ملوكيّاً، أمَّةً مقدَّســة. وإِذْ طَهَّرنا بالماءِ وقدَّسَنا بالرُّوحِ القدُس، بذلَ نفسَهُ فِدْيةً للموت، الذي كُنَّا فيهِ مضبوطينَ أرِقَّـــاءَ للخطيئة. ولَمَّا انحدرَ بالصليبِ إلى الجحيم، لِيُتِمَّ في ذاتِهِ كلَّ شيء، حَلَّ أوجاعَ الموت. وإِذْ قـــامَ في اليومِ الثالث، وفتحَ طريقَ القيامةِ من بينِ الأمواتِ لكلِّ جسد، إِذْ لَم يكنْ مُمكناً أن يُضبَطَ مُبـدِئُ الحياةِ في البِلى، صارَ باكورةً للرَّاقدين، وبِكراً مِن بينِ الأموات، ليكونَ هو نفسُهُ الكـلَّ والأوَّلَ في كلِّ شيء. وإِذْ صعِدَ إلى السماوات، جلسَ عن يمينِ عظمتِكَ في الأعالي. وهو سيأتي أيضاً ليجازيَ كلَّ واحدٍ بحسبِ أعمالِه" [1]

٢- الكنيسة جسد المسيح الحامل الحياة:

أكمل الرب يسوع عمله الخلاصي وصعد إلى السماوات لكنه لم يترك تلاميذه يتامى [2]، بل أرسل الروح القدس [3] وأسّس الكنيسة وأقامها جسده الحامل الحياة و"عمـــود الحـــق وركنـــه" (١تيمو ٣:١٥). وهكذا، فذبيحة الصليب التي تّمت مرة واحدة في التاريخ، تصبح حَدَثاً حـــاضراً في كل آنٍ ومكان، فاعلاً من أجل خلاص الإنسان وتقديسه

يولد الإنسان بطبيعة أفسدتها الخطيئة، ولكنه عندما يشترك بسر المسيح يتجـــدّد ويخلـــص. ويكون اشتراكه في "السر المكتوم في الأزمنة الأزلية" (رو ١٦:٢٥) بالأسرار الإلهية في الكنيســـة. فالأسرار "أفعال مقدسة تقيمها الكنيسة بقوة الروح القدس وتمنح بها المؤمنين نعمة الروح القـــدس بعلامات محسوسة لتقديسهم وجعلهم أبناء حقيقيين لله بعبادة فريدة، بحيث يضمّهم هو إلى ذاتـــه

---

[1] – أنافورا القديس باسيليوس الكبير. راجع الأسقف يوحنا يازجي، كتاب خدمة الكهنة، ديـــر القديـــس جاورجيوس الحميراء البطريركي، ٢٠٠٠، ص ٢٨٢ – ٢٨٣

[2] – راجع يو ١٤:١٨

[3] – راجع يو ١٤:٢٦

وإلى الكنيسة جسده فينمون هم في النعمة والقامة صائرين أشخاصاً كاملين، كنيسة مجيدة لا عيب فيها ولا دنس ولا شيء مثل ذلك (أف ٤:١٣ و٥:٢٧)" [١]

يخرج الإنسان من جرن المعمودية مولوداً جديداً لا من لحم ودم ولا من مشيئة رجل، بل من الله [٢]، ويعود إلى جماله الأول وكيانه الحقيقي ويشترك في موت المسيح وقيامته [٣]، ويتجدّد بالبرّ والقداسة ويتجنّد للمسيح، ويتعهّد" ألاّ يرتبك بأعمال الحياة بل أن يُرضي مَنْ جنَّده" (٢تيمو ٢:٤) وأن يُنهي طريق استنارته وتألّهه "على صورة خالقه" (كول ٣:١٠). ثم يُمسَح بعد ذلك بالميرون المقدس فيحصل على ختم الروح القدس وينعم بمواهبه الإلهية، ويشترك بعد ذلك بجسد الرب ودمه الكريمين في الإفخارستيا مع الجماعة المؤمنة. وهكذا، يكتمل انتماؤه إلى جسد المسيح، الكنيسة. فبالمعمودية يُولد الإنسان في المسيح، وبالميرون يحصل على مواهب الروح التي تقوّيه لينمو في الحياة الجديدة وتُرشده إلى كل الحق لكي يصير شاهداً لاسم الرب، وبالإفخارستيا يشترك بمائدة الرب التي تمنحه الحياة الأبدية "مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير" (يو ٦:٥٤)، ويصير شريك الطبيعة الإلهية "به (المسيح) وُهبت لنا المواعيد العظيمة الثمينة لكي تصيروا شركاء الطبيعة الإلهية" (٢بط ١:٤)، ويصبح بالتالي غصناً من كرمة الحياة "فإننا نحن الكثيرون خبز واحد وجسد واحد لأننا جميعاً نشترك في الخبز الواحد" (١كو ١٠:١٧)

إن الإنسان الذي أصبح عضواً في جسد الرب، بأسرار المعمودية والميرون والإفخارستيا، مدعوٌّ أن يفعِّل انتماءه هذا ويصل به إلى كماله، بأن يتحول كيانه كله إلى الله حتى يصل بنعمة الله إلى "قياس قامة ملء المسيح" (أف ٤:١٣)، لكنه مهدّد دوماً بالسقوط من دعوته بميله للخطيئة، التي تشوّه صورة الله فيه من جديد. وبالتالي عليه أن يتصالح مع الله من جديد، الأمر الذي يحصل بسر التوبة. فالتوبة هي بمثابة معمودية ثانية، أي سر مصالحة الإنسان مع الله بعد المعمودية "فكل الذين لم يحفظوا نعمة الولادة الجديدة (المعمودية) بلا عيب وسقطوا من النعمة الإلهية بسبب خطاياهم، يستطيعون أن يحصلوا ثانية على رأفة الله ومحبته برجوعهم إلى الكهنة واعترافهم لهم بخطاياهم واستحقاقهم للغفران" [٤]

---

[١] – الدليل الرعائي إلى الأسرار، بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس، ١٩٩٦، ص ٢١-٢٢

[٢] – راجع يو ١:١٢-١٣ و ٣:٣-٧

[٣] – راجع رو ٦:٣-٥

[٤] – البابا لاون، الرسالة ٨٥:٣٢

لهذا، أسّس الرب يسوع سر التوبة بعد قيامته من بين الأموات، عندما ظهر لتلاميذه وقال لهم "السلام لكم، كما أرسلني الآب أنا أرسلكم. ولما قال هذا نفخ فيهم وقال لهم خذوا الروح القدس، مَنْ غفرتم خطاياهم تُغفر لهم ومَنْ أمسكتم خطاياهم أُمسكت" (يو ٢٠:٢١-٢٣)، كي لا يهلك أحد لأنه لا يشاء موت الخاطئ بل أن يعود ويحيا [١]

٣- جذور التوبة في العهد القديم:

نجد ذكراً للتوبة في العهد القديم، كحضٍّ على التوبة والاعتراف بالخطايا من ناحية للحصول على الغفران [٢]، وكأحداث وأفعال تكفيرية من ناحية أخرى. التوبة فضيلة، فلامك اعترف بخطيئته لامرأتيه [٣]، وأرسل الله يونان لأهل نينوى ينذرهم فتابوا بالصوم والصلاة ولبس المسوح والجلوس على الرماد ورجعوا عن ظلمهم فنالوا من الله الرحمة والعفو [٤]، واعترف داوود لناثان النبي بإثمه "فقال داوود لناثان قد خطئت إلى الرب، فقال ناثان لداوود إن الرب أيضاً قد نقل خطيئتك عنك فلا تموت أنت" (٢مل ١٢:١٣)، وعليه قال داوود "قلت أعترف للرب بمعاصي وأنت غفرت إثم خطيئتي" (مز ٣١:٥)

كانت التوبة فردية في العهد القديم وكذلك جماعية، إذا كان ما يستدعي التوبة يخصّ الجماعة "إذا انكسر شعبك إسرائيل أمام العدو فلأنهم قد أخطأوا إليك. لكنهم رجعوا إليك واعترفوا باسمك وصلّوا وتضرّعوا إليك نحو هذا البيت، فاسمع أنت من السماء واغفر خطيئة شعبك إسرائيل وأرجعهم إلى الأرض التي أعطيتها لآبائهم" (١مل ٨:٣٣-٣٤)

كان يرافق التوبة الصوم وارتداء المسح والجلوس على الرماد وفرشه على الرأس والجسم "ولما سمع آحاب هذا الكلام شقّ ثيابه وجعل مسحاً على جسده وصام وبات بالمسح ومشى بسكوت" (١مل٢١:٢٧) [٥]

---

[١] - راجع ٢بط ٣:٩

[٢] – راجع يوئيل ٢:١٢-١٨ ولاويين ٥:٥ وإشع ١:١٦

[٣] - راجع تك ٤:٢٣

[٤] – راجع يونان ٣

[٥] - راجع أيضاً أش ٥٨:٥ ونحميا ٩:١ ودانيال ٩:٣

كانت أعمال التوبة تُتَمَّم لطلب المساعدة من الله [١]. فالحافز الأساسي للتوبة كان ظهور مشكلة ما، أو حدوث كارثة أو خسارة على الجماعة أو الفرد. لهذا، انتقد الأنبياء هذه التوبة وأكدوا على ضرورة التوبة الحقيقية، ليس بأن يأسف الإنسان على خطايا اقترفها ويصلي للحصول على الغفران، أو أن يلجأ إلى الله عند حصول كارثة ما ويتوقف عن توبته بعد انتهائها. فداوود صام وانتحب ما دام هناك أمل بأن الله قد يبسط رحمته ويُبقي على حياة الطفل ولكن عندما مات الطفل توقّف داوود عن النحيب إذ لم يعد باستطاعته أن يعيد الطفل [٢]. أكّد الأنبياء أن التوبة الحقيقية هي بأن يبتعد الإنسان عن الخطيئة، وأن يلجأ إلى الله بشكل دائم، وليس فقط عند وقوعه في حادثة ما، لأنها تهدف لإرساء علاقة جديدة مع يهوه "إرجعوا إليَّ يقول الرب. إرجعوا إليَّ بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح ومزّقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا إلى الرب إلهكم لأنه رؤوف رحيم بطيء الغضب وكثير الرحمة ويندم على الشر" (يوئيل ٢:١٢-١٣). إن التوبة المصحوبة بالصوم والمسوح والرماد هي التحوّل نحو الله والخضوع لمشيئته والثقة به والابتعاد عن كل ما هو غير مرضي أمامه

٤- التوبة في العهد الجديد:

يؤكد العهد الجديد أن الإنسان المسيحي يحيا لله وليس للخطيئة "كل مولود من الله لا يعمل الخطيئة، لأن زرع الله ثابت فيه، لا يقدر أن يعمل الخطيئة وهو من الله" (١يو ٣:٩) [٣]، وأن على الخاطئ أن يتوب إلى الله عندما يسقط في زلّة ما [٤]. فالسماء تفرح بخلاص الخروف الضال، والابن الشاطر عاد إلى بيته الأبوي بتوبته، وكذلك اللص الذي تاب على الصليب استحق الفردوس، أما بطرس فعاد إلى رتبته الرسولية بعد إنكاره السيد بفضل بكائه وتوبته، ونجد العديد من الآيات والحوادث التي تُظهر ثمار التوبة وتؤكد على أهميتها [٥]. فالتوبة تعطي النعمة والتجديد وطهارة النفس وذلك بفضل ذبيحة الرب الذي"دمه ينقّينا من كل خطيئة" (١يو ١:٧)

---

[١] - راجع ١صم ٧:٦ ودانيال ٩:٤ وأرميا ٣٦:٦-٩

[٢] - راجع ٢صم ١٢:١٥-٢٣

[٣] - راجع ١كور ١:٢ و٣:١٦-١٧ وأف ٥:٢٧ ورو ٦:٣-١١ و٢كور ٦:١٦

[٤] - راجع ٢كور ١٢:٢١ ومتى ١٣:٢٤-٤٣ و١٨:١٥-٢٢

[٥] - راجع لو ٥:٣٢ و ٧:٣٦-٥٠ و١٨:٩-١٥ و١٥:١١-٣٢ و١٣:٢-٥ وأع ١٩:١٨ ومتى ٢٦: ٦٠-٧٥ و٤:١٧ و٣:٢ ومر ٦:١٢ وأع ٢:٣٨ و٣:١٩ و ٨:٢٢ و٢٠:٢١ و٢٦:٢٠ وعب ٦:١

"جاء يسوع إلى الجليل، بعدما أُسلم يوحنا، يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (مر ١:١٤-١٥) [١]. فالتوبة والعودة إلى الله هي منطلق رسالة يسوع "لم آتِ لأدعو صدّيقين بل خطأة إلى التوبة" (لو ٥:٣٢)، وهي مرتبطة بشكل مباشر بحلول الملكوت في شخصه

كذلك تأتي التوبة في قلب بشارة الرسل مرتبطة بالمعمودية لمغفرة الخطايا "توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس" (أع ٢:٣٨) [٢]. وهي تحمل طابع الهبة من الله "فلما سمعوا ذلك سكتوا وكانوا يمجّدون الله قائلين: إذاً أعطى الله الأمم أيضاً التوبة للحياة" (أع ١١:١٨) [٣]

التوبة هي سر في العهد الجديد لتجديد المعمودية وللعيش دوماً بحسب وصية الله. وقد أخذت بُعداً خلاصياً بالنسبة للشخص في مسيرته نحو الملكوت، وبُعداً كنسياً في شركته مع الجماعة. فللخطيئة أبعاد ونتائج على صعيد علاقة الإنسان بالله وبالكنيسة بالإضافة إلى صعيد حياته الداخلية

٥- التوبة سر تحرّر الذات وانطلاقها نحو الملكوت:

كلمة توبة باللغة اليونانية Μετάνοια تتألف من شقين: μετά وتعني ما وراء أو ما بعد و νούς وتعني الذهن. وبذلك فهي تعني تغيير الذهن والتحوّل نحو الله. فالتوبة تعني تغيير الإنسان لأفكاره واعتقاداته وحياته وخضوعه لناموس الله ووصاياه وابتعاده عن المفاسد والشرور. التوبة الحقيقية ثورة تهزّ أعماق الكيان الداخلي الإنساني وتبدّله بشكل جذري، فيصبح الله محور حياة الإنسان "الألف والياء، البداية والنهاية" (رؤ ١:٨)، وتصير بذلك شريعة الله نابعة من داخل الإنسان وليس فرضاً خارجياً عليه

تفترض التوبة عودة الإنسان إلى ذاته ومعرفته لأعماق نفسه، لأن التوبة مستحيلة دون معرفة الإنسان لذاته. فالابن الشاطر عاد إلى أبيه بعد أن رجع إلى نفسه "فرجع إلى نفسه وقال: كم أجير لأبي يفضل عنه الخبز وأنا أهلك هنا جوعاً! أقوم وأمضي إلى أبي" (لو ١٥:١٧-١٨)

---

[١] - راجع أيضاً مت ٤:١٧

[٢] - راجع أيضاً أع ٣:١٩ و٥:٣١ و٨:٢٢ و١١:١٨ و١٧:٣٠ و٢٠:٢١ و٢٦:٢٠

[٣] - راجع أيضاً ٢ تيمو ٢:٢٥

عندما يعود الإنسان إلى ذاته ويكتشف خطيئته ينسحق ويتخشّع. فالابن الشاطر رجع إلى أبيه بانسحاق كبير "يا أبتِ إني خطئت إلى السماء وإليك. ولست أهلاً بعدَ ذلك لأن أُدعى لك ابناً، فاجعلني كأحد أجرائك" (لو ١٥:١٨-١٩). ويقول القديس يوحنا الذهبي الفم بهذا الخصوص: "إذا كان بكاء بطرس قد محا خطيئة عظيمة جداً، فأنت إذا بكيت كيف لا تمحو خطيئتك؟ فإن إنكار ذاك لسيده لم يكن جريمة صغيرة بل عظيمة، ومع ذلك فقد محت الدموع الخطيئة. فابكِ إذاً أنت على خطيئتك، ولكن لا يكوننَّ بكاؤك على حسب العادة وفي الظاهر، بل ابكِ بمرارة مثل بطرس، وقدِّم ينابيع دموعك من أعماقك حتى يتحنّن عليك السيد ويغفر ذنبك" [١]. شعور الإنسان بخطيئته يجعله يبوح بها ويعترف بخفاياه بكل صدق

يرافق التوبة تصميم ثابت على إصلاح الإنسان لكيانه الداخلي وسيرته، فيبتعد عن السيئات ويفعل ما يليق بالتوبة "لمّا رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته قال لهم (يوحنا المعمدان): يا أولاد الأفاعي مَنْ دلَّكم على الهرب من السخط الآتي، فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة" (مت ٣:٧-٨). والقديس أمبروسيوس يقول "يجب على التائب أن يغسل خطيئته بالدموع وأن يترك الهفوات السابقة، ويقوم بأعمال صالحة كي لا تُحسب التوبة عليه خطيئة" [٢]

وهكذا، فالتوبة هي طريق الكمال ومسيرة التطهير والاستنارة والاتحاد بالله. هذه المسيرة التي لا تعرف التوقف فكل "وصول" إلى الله هو "صنم" و"عبادة أوثان". إن القديس سيصويه الكبير بعد حياة طويلة حافلة بالنسك والتوبة، وهو على فراش الموت، والرهبان حوله يحيطون به، لاحظوا أن وجهه قد أشرق فجأة واستنار، فسألوه: ما لك أيها الأب سيصويه؟ فأجاب: إنني أرى أبانا القديس أنطونيوس الكبير. ثم لاحظوا بعد فترة أن وجهه قد ازداد إشراقاً وضياءً فسألوه: مَنْ ترى الآن يا أبانا؟ فأجاب: أرى الرسل القديسين. ثم بعد فترة أبصروا وجهه يزداد إشراقاً ونوراً ولمعاناً فسألوه: والآن مَنْ ترى أيها الأب؟ فقال: أرى سيدتنا مريم العذراء والدة الإله. ثم شاهدوه يتمتم بشفتيه كأنه يتكلم مع أحد. فسألوه بماذا تتكلم! فأجاب: إني أتضرع إلى العذراء والدة الإله أن تتشفع لي لئلاَّ أموت الآن، بل أن أبقى زمناً آخر في الحياة، لكي يتسنَّى لي أن أبدأ بالتوبة". فالشيخ سيصويه، الشهير بين آباء البرية والذي قضى حياته بالأصوام والأسهار والأتعاب، يقول

---

[١] - في التوبة ٣:٣

[٢] - في التوبة ٢:٥،٣٥

وهو على فراش الموت، عند مشاهدته بهاء المجد السماوي: إنه لم يبدأ بعد بالتوبة !

نعم، فالله هو الحقيقة الوحيدة التي لا يُشبَعْ منها، وفي التوبة جوع إلى الله وعطش إليه لا حدَّ لهما. النفس البشرية في طبيعتها تريد الله لأنها على صورته، وإن لم تفتّشِ النفس عن الله تُظلِـــــم، لأنها آنذاك تجد اللَّذة وتُستَعبد لها، ثم تملّها وتفتّش عن لذّة أخرى لأن كل غبطة خارج الله محدودة ومنتهية. إن عطش النفس غير محدود ولا يرتوي إلاّ بالله، ولهذا فإن ملذّات العالم تفقـــر النفـــس وتُفقدها حريتها وقوتها. وما الإنسان إلاّ ذاك الذي يحب الله، فكلما غرف من محبته كلّمـــا ازداد عطشاً إلى معرفته، وكلما نال فهماً أكثر عنه، ازداد مقدرةً على الإدراك، وكلما ازداد إدراكاً نال مقدرة أكثر على النمو

ثانياً: ممارسة سر التوبة في حياة الكنيسة

١- سر التوبة أيام الرسل:

أدرك المسيحيون الأوائل، كما نرى في نصوص العهد الجديد، أنه باقتبالهم الإيمان المسيحي وانضمامهم إلى جسد المسيح أي الكنيسة، كان عليهم أن يحيوا بحسب إنجيل المسيح وأن يشهدوا للحق سالكين في النور وحافظين وصايا الرب كأبناء له "أَوَ تجهلون أنَّا وقد اعتمدنا في يسوع المسيح، إنما اعتمدنا في موته، فدفنا معه في المعمودية لنموت فنحيا حياة جديدة" (رو ٦:٤). كما نجد العديد من النصوص التي يحثّ فيها الرسل المؤمنين على الاعتراف بالخطايا والتوبة إلى الله "إذا قلنا أننا بلا خطيئة ضَلَلنا أنفسنا و لم يكن الحق فينا. وإذا اعترفنا بخطايانا فإنه أمين بار يغفر لنا خطايانا ويطهّرنا من كل إثم" (١يو١:٨-٩)

وقد طلب الرسل من المؤمنين أن يصفحوا للخطأة وأن يساعدوا الإخوة الضعفاء وأن يصلّوا من أجلهم ويحثّوهم بواسطة النصح الأخوي كي يبتعدوا عن خطاياهم ويحيوا للقداسة لا للإثم [1]، أما إذا تمرّدوا و لم يقبلوا النصيحة فيُحرَمون ويُفصَلون عن الشركة الكنسية. ويقول الرسول بولس عن الرجل الذي ساكن امرأة أبيه "وفي أثناء اجتماعٍ لكم روحي، مع قدرة ربنا يسوع، يُسلَم هذا الرجل إلى الشيطان، حتى يهلِك جسده فتخلُصَ روحه يومَ الرب. أزيلوا الفاسق من بينكم" (١كور٥:١-١٣). هذا كله لأن المسيحيين الأوائل كانوا يذكرون أن "الرب لا يبطئ في إنجاز وعده... ولكنه يصبر عليكم لأنه لا يشاء أن يهلك أحد بل أن يبلُغَ جميع الناس إلى التوبة" (٢بط٣:٩)

٢- سر التوبة في القرن الثاني:

من دراسة مصادر القرن الثاني أي مرحلة ما بعد الرسل، مثل تعليم الرسل الإثني عشر (الذيذاخي) وكليمندس الروماني وإغناطيوس الأنطاكي ورسالة بوليكربوس ورسالة برنابا والراعي هرماس ويوستينوس الشهيد، لا نجد قانوناً منظَّماً للتوبة. فالاعتراف ممارسة شخصية خاصة، والتوبة حالة مستمرة يحياها المؤمن منذ ولادته بالمسيح يومَ معموديته وتمتد حتى آخر لحظة من حياته على الأرض

---

[1] - راجع عب ٣:١٣-١٤ و١يو٥:١٦-١٧ و٢كور٢:٥-١١ و١تس٥:١١-١٤ و٢تس٣:١٣-١٥

تتكلم الذيذاخي عن الاعتراف بالخطايا "إعترف بخطاياك أمام الجميع ولا تذهب إلى الصلاة بقلب شرير" (١٤:٤)، وكذلك عن ضرورة الاعتراف قبل الاشتراك في ذبيحة الإفخارستيا "اجتمعوا في يوم الرب واكسروا الخبز واشكروا، بعد الاعتراف بخطاياكم، حتى تكون تقدمتكم طاهرة" [١]

وقد حثّ كليمندس الروماني (+١٠١) الكورنثيين على طلب الغفران عن كل الخطايا والسقطات "أيها الإخوة، إن معلم المسكونة مجرّد من المنافع. إنه لا يطلب شيئاً من أحد سوى الاعتراف بخطاياه. إن داوود مختاره قال "أعترف للرب واعترافي يروقه أكثر من عجل فتيّ ذي قرون وأظلاف. أنظروا أيها الفقراء وابتهجوا" (مز ٦٩:٣١-٣٣) [٢]

أما هرماس الراعي فإنه يرى أن الذين خطئوا بعد معموديتهم يمكنهم أن يخلصوا بالتوبة، ولكن لمرّة واحدة "المعمودية تغفر الخطايا، والمخلص وضع التوبة للذين آمنوا قبل هذه الأيام لأنه وهو العارف خفايا القلوب والمالئ الكل رأى الضعف البشري ورأى حيل الشيطان والفخاخ التي يحاول أن يوقع بها خليقته، لذا تحنّن برحمته وأوجد التوبة وأُعطيت لي سلطتها" [٣]. إن الله، يرى الراعي هرماس، يريد خلاص الجميع ويقبل برحمته التائبين الذين يمارسون التوبة كتغيير حقيقي وتجديد داخلي، خلقي ومسلكي "إني أعطي الوعي للتائبين لأني أنا لهم. ألا تعتقد أن عملية التوبة هي عملية تجديد! إن التوبة هي عملية حكمة عظيمة. إن الخاطئ يتعقّل عندما يدرك أنه فعل شراً أمام الله، فيذكر العمل الشرير الذي صعد إلى قلبه ويتوب ويمتنع عن عمل الشر، وليس هذا فقط بل يفعل الخير ويذلّ نفسه لأنها أخطأت. أرأيت أن التوبة هي عملية تجديد وإدراك عظيمة" [٤]

كانت الكنيسة إذاً تسهر على أبنائها، وكانت عندما يخطئ أحد أعضائها تحرمه من الاشتراك في الإفخارستيا، ولكنها تحتضنه في صلاتها وتُخضعه لأعمال التوبة كالصوم والصلاة والصدقة كي يرتد ويعود ويتوب

---

[١] - ١٤:١

[٢] - الرسالة ٥٢:١-٤. راجع الرسالة ٥١:١-٥

[٣] - الوصية الرابعة ٣:٤-٦. راجع أيضاً المثل الثامن ١١:١

[٤] - الوصية الرابعة ٢:٢

٣- سر التوبة في القرن الثالث وحتى السادس:

أخذت التوبة ابتداءً من القرن الثالث شكلاً جديداً، حيث ظهرت كنظام كنسي كان يخضع فيه الساقطون والجاحدون لقانون توبة يفرضه الأسقف عليهم ويُحرَمون من الاشتراك في الإفخارستيا. وكانوا بعد أن يبرهنوا عن ابتعادهم عن خطاياهم وينهون قانون توبتهم ينالون المسامحة والغفران ويُقبَلون من جديد في الاجتماع الإفخارستي

عُرِفت هذه التوبة بـ "التوبة العَلَنيّة" لأنها كانت تترافق مع قانون خاص بها وأعمال تكفيرية كالصوم والصلاة والصدقة بشكل عَلَني، وكانت تحصل من جرى ارتكاب خطيئة الجحود أو القتل أو الزنى. تفاقمت قضية التوبة وطريقة التعاطي مع الساقطين عندما بدأ بعض المؤمنين يجحدون الإيمان بسبب الاضطهاد

يذكر بيلينيوس في رسالته إلى الامبراطور تراجيان أن أولئك "الذين قالوا أنهم مسيحيون ثم جحدوا إيمانهم" [١] لم يعد منهم إلى الكنيسة إلا القليل لأنهم قد فرزوا أنفسهم بإرادتهم. وظهرت المشكلة حادة بهذا الخصوص مع الاضطهاد الذي حصل في عهد الامبراطور داكيوس (٢٥٠-٢٥١)، ويصف كبريانوس ذلك قائلاً "إن العائلات تنقسم على بعضها. الابن يستشهد أما الأم والأخت فيجحدان الإيمان" [٢]. وتتكرر المشكلة مع اضطهاد ديوكليتيانوس (منذ عام ٣٢٠)، حيث يجحد الكثيرون إيمانهم ويقدّمون القرابين للأوثان، وتصبح بذلك التوبة قضية تقلق الكنيسة عامة، فتحدَّدت بأكثر دقة القوانين التي تقبل من خلالها الكنيسة الجاحدين والساقطين وتعيدهم إلى المصالحة مع الله والشركة مع الجماعة

يؤكد مثلاً إيريناوس (+٢٠٢) أن الله يغفر جميع أنواع الخطايا، وحتى خطيئة الجحود ونكران الإيمان، إذا كانت هناك توبة حقيقية [٣]. وكذلك يؤكد أوريجانيس (١٨٥-٢٥٣) أن الاعتراف بالخطايا أمام الكاهن يجلب الغفران [٤]، مشيراً إلى أن صلاة الكنيسة وحدها من أجل التائب لا تكفي لنيل الغفران بل على الخاطئ أن يخضع لقانون توبة ويبرهن عن صدقه في الابتعاد عن خطاياه "إن المسيحيين يبكون الفاسقين أو الذين ارتكبوا خطايا أخرى معتبرين أن هؤلاء

---

[١] - ١٠:٦٩-٦

[٢] - في الساقطين، الرسالة ١:٢٧

[٣] - ضد الهرطقات ٣، ١٤:٤ و٢٣، ٣، و٥، ١١:١ و٢٤ ، ٢

[٤] - في المزمور ٣٧:٢،٥

أصبحوا، بسبب ما ارتكبوه من معاصٍ، في عداد التائهين بعد أن أماتوا ذواتهم بالنسبة إلى الله. ولكن إذا ما أعطى هؤلاء البرهان الكافي على تحوّل قلبهم تحوّلاً صادقاً مخلصاً فإنهم يُعادون إلى القطيع في وقت لاحق، أي بعد فترة تطول أكثر من الفترة التي قُبلوا بها في المرة الأولى" [١]

وقد اتّسمت التوبة في هذه الحقبة بطرائق أعطتها بعض الخصائص والميزات، منها:

آ- صرامة قانون التوبة:

إمتاز قانون التوبة بصرامته وطول أمده لسنوات، حسب الخطيئة المرتكبة، وكان يُمنَع الخاطئ من المشاركة في الأسرار. فالزاني مثلاً يُقبَل في الشركة بعد سبع سنوات من سقوطه [٢]، أما القاتلون عن عمد فلا يُقبَلون في الشركة إلاّ في آخر حياتهم [٣]، واللواتي يجهضن فيُقبَلن عند ساعة موتهن أو بعد قضاء عشر سنوات في قانون توبة [٤] بغية معاملتهن بشفقة

رغم ما يبدو من صرامة وشدة متّبعة في قوانين التوبة للساقطين، نجد تنوعاً واضحاً في تحديداتها، مع التأكيد على ضرورة التعاطي مع التائبين برحمة وشفقة لأنها تبتغي بالنتيجة خلاص النفوس

ب- التوبة مصالحة كنسية:

كان الذين يسقطون في خطايا، وخاصة الجحود والقتل والزنى كما ذكرنا سابقاً، يخضعون لقانون توبة ويُحرَمون من الاشتراك بالأسرار الإلهية. وكانت توبتهم تتم على أربع مراحل في الكنيسة:

I- **طلب التوبة:** عندما كان يسقط أحد المؤمنين بخطيئة من الخطايا المذكورة، كان يأتي ويقرّ بخطيئته ويطلب التوبة، أو إن جماعة المؤمنين كانت تطلب من الأسقف فصله عنها

II- **قبول التوبة:** بعد أن يتأكد الأسقف من صدق نية طالب التوبة بالابتعاد عن خطيئته والعودة إلى الكنيسة، كان يحثه على التوبة ويسجّل اسمه في عداد التائبين

III- **قانون التوبة:** كان الأسقف يفرض على التائب قانوناً للتوبة، يختلف باختلاف

---

[١] - إلى سيلسوس ٣،٥١

[٢] - القانون ٢٠ لمجمع أنقرة ٤٣١م. راجع مجموعة الشرع الكنسي لحنانيا كساب، منشورات النور، ١٩٧٥، ص ١٣٧

[٣] - القانون ٢٢ لمجمع أنقرة. مجموعة الشرع الكنسي صفحة ١٣٩

[٤] - راجع القانون ٢١ لمجمع أنقرة، مجموعة الشرع الكنسي صفحة ١٣٨

الخطيئة المرتكبة، بغية تأديب الخاطئ ومساعدته بالتكفير عن خطيئته والابتعاد عنها والعـــودة إلى الحياة في المسيح يسوع

IV- **المصالحة:** كانت تحصل المصالحة للتائبين بعد انقضاء مدة قانون توبتهم، بشـــكل عَلَني في الاجتماع الإفخارستي، حيث كان الأسقف يضع يده عليهم ويحلّـــهم مـــن خطايـــاهم ويصالحهم مع الله ويعيدهم إلى الشركة الكنسية، فيشتركوا في تقديم القرابين وتناول جسد الـــرب ودمه الكريمين

وهذا ما نراه في الليتورجيات، في القرون الأولى، حيث نجد طلبات إطلاق التـــائبين بعـــد صرف الموعوظين، الذي كان يتم بعد العظة، إذ لم يكن يُسمح لهم بالاشتراك بالتقدمـــة. تذكـــر ليتورجية الأوامر الرسولية أن الشماس كان يقول بعد صرف الموعوظين الطلبات التاليـــة: "أيـــها التائبون صلّوا * لنصلّ بحرارة من أجل إخوتنا الذين هم في التوبة * لكي يظهر لهم الله المحب البشر الرحمة طريقاً للتوبة * ... لكي يتقبّل الله المحب البشر طلباتهم سريعاً ويعيدهم إلى المرتبة القديمـــة، ويهبهم فرح الخلاص، ويثبّتهم بروح مدبّر حتى لا تهتز خطواتهم، بل يصيروا شركاء أسراره الإلهية الشريفة * قفوا (أيها التائبون)، أحنوا رؤوسكم لله بمسيحه وتقبلوا البركة". فيتلو الكاهن الإفشـين التالي: "أيها الضابط الكل، الإله الأبدي، سيد الجميع، خالق كل الأشياء ومدبّرها، الذي أظـــهر الإنسان زينةً للعالم بالمسيح، ووهبه ناموساً طبيعياً وناموساً مكتوباً، لكي يعيش بموجبه كخليقـــة ناطقة، وعندما سقط وهبه صلاحاً عربوناً لكي يجذبه إلى التوبة، أنت الآن اطّلع على الذين حنـــوا لك عنق النفس والجسد، إذ إنك لا تشاء موت الخاطئ بل توبته، لكي يعود عن طريقه الشـــرير فيحيا. يا من قبل توبة أهل نينوى، يا من يشاء أن يخلص الجميع وإلى معرفة الحق يقبلوا، يا مَنْ قَبِل بأحشاءٍ أبوية الابن المبدّد أمواله في عيشٍ مسرفٍ عندما تاب، أنت الآن اقبل توبة طالبيك، فإنـــه ليس إنسان لا يخطئ إليك، لأنك إن كنت للآثام راصداً يا رب فيا رب من يثبت فإن من عنـــدك الاغتفار. ردّهم إلى كنيستك المقدسة برتبتهم وكرامتهم السابقتَين، بالمسيح إلهنا ومخلصنا، الذي به لك المجد والسجود بالروح القدس إلى الأبد" [1]

[1] – ليتورجية الأوامر الرسولية. راجع "النموذج الأقدم لليتورجية الأنطاكية حســـب الأوامـــر الرســـولية"، الأرشمندريت يوحنا يازجي. حوليات معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي – البلمنـــد ١٩٨٩ – ١٩٩٠، ص ٢٨ - ٢٩

ج- مراتب التائبين:

كان التائبون يؤلفون فئة خاصة، تتألف من درجات مختلفة باختلاف الخطايا المرتكبة، وهم:

I- **الباكون**، وهم الذين لم يكن يُسمح لهم بالدخول إلى الكنيسة بل كانوا يقفون عند مدخلها متضرعين إلى المؤمنين أن يصلّوا من أجلهم

II- **السامعون**، وهم الذين كان يُسمح لهم بالدخول إلى النرثكس والاشتراك بالصلوات حتى العظة، حيث كانوا يُصرَفون مع الموعوظين

III- **الراكعون**، وهم الذين كان يُسمَح لهم بالدخول إلى صحن الكنيسة والاشتراك في الصلوات، لكنهم كانوا يخرجون مع الموعوظين. وكانوا قبل خروجهم يركعون بخشوع وانسحاق قلب وتُقام الصلاة من أجلهم ويضع الأسقف يده عليهم ويُصرَفون

IV- **المشتركون**، وهم الذين كان يُسمَح لهم بالدخول إلى صحن الكنيسة والاشتراك مع المؤمنين في الصلوات بكاملها، دون أن يشتركوا بالأسرار الطاهرة [1]

د- الإعتراف وثمار التوبة:

كانت التوبة عَلَنية في هذه الفترة، إذ إن الخطيئة بحدّ ذاتها واضحة ومعروفة من قِبَل الجميع. ولكن هذا لا يعني أن نخلط بين التوبة العَلَنيّة والاعتراف الشخصي (المعمول به حتى اليوم في الكنيسة). ألغى البطريرك نكتاريوس القسطنطيني عام ٣٩١ وظيفة المؤدب الكبير الذي كان من واجباته أن يحدّد نوع التأديب العَلَني على كل خطيئة ارتكبت، واعتقد البعض أن هذا كان نهاية للتوبة العَلَنيّة في كنيسة القسطنطينية. لكن التوبة العَلَنيّة لم تتوقف لعدة قرون في كنيسة القسطنطينية فالامبراطور ألكسيوس كومنينوس الذي استولى عام ١٠٨٠م على العرش الامبراطوري قام بتوبة عَلَنيّة على قواعد النظام القديم للتوبة [2]

إن الخطيئة تسيء إلى الكيان الإنساني، ولهذا فالتوبة لا تعني فقط تغيير المواقف ولكنها تفترض ثماراً ونتائج، تظهر من خلال ممارسات كالسجود والصلاة وأعمال الرحمة التي تُظهر صدق التائب وسعيه الجدّي في إصلاح ذاته

كانت تُتلى صلوات على التائبين وتوضع الأيدي عليهم، لكن المصالحة النهائية كانت تحصل

---

[1] – راجع القانون (١١) لمجمع نيقية. مجموعة الشرع الكنسي، ص ٧٠

[2] – راجع مجموعة الشرع الكنسي، ص ٧٤

باشتراكهم بالقرابين الطاهرة

٤- سر التوبة في القرن السابع وحتى الخامس عشر:

الرهبنة هي عالم المشورة الروحية والتوجيه بإرشاد الأب الروحي Πνευματικός Πατήρ ، الذي يبتغي التطهير المستمر بموجب مقاييس الطبابة الروحية [١]. بدأ هذا التأثير باكراً جداً، لكن نقطة التحول أتت بعد انتهاء حرب الأيقونات، حيث أصبح الرهبان يتعاطون دوراً واضحاً في إرشاد المؤمنين وتوجيههم

برز في ممارسة التوبة في هذه الحقبة الصفات التالية:

آ- الإعتراف الشخصي الخاص:

إن اختفاء الطابع "العَلَني" للممارسة القديمة، أي تحديد فئات للتائبين وترابط ذلك مع لباس

---

[١] – "يجدر بالذين تلقوا من الله سلطان الحل والربط أن ينظروا إلى نوع الخطيئة وإلى استعداد الخاطئ للرجوع، وأن يستعملوا الدواء النافع لكل مرض لئلا يؤدي عدم مراعاة الاعتدال في كل حالة إلى الخيبة في شفاء الإنسان المريض وإعداده لقبول الخلاص. إن أمراض الخطيئة مستعصية ومتعددة الأنواع وينشأ عنها مضاعفات مختلفة مؤذية وخبيثة في كثرة ما يتفرع منها من الشرور. وهي تمتد وتزيد استعصاء حتى يعسر على الطبيب الخبير أن يضع لها حداً. ولذلك فعلى كل من يتعاطى وظيفة الطبيب الروحي أن يأخذ بعين الاعتبار استعداد الساقط في الخطيئة وموقفه، وأن يتحقق من مقدار قبوله للشفاء، أو إذا كان سلوكه الشخصي قد أدى إلى تفشّي الداء في نفسه، وعليه أن يدرس الخطط التي تساعده على العناية بتجدد سيرته أثناء المعالجة. وكذلك يجب عليه أن يفحص إذا كان الخاطئ يقاوم معالجة الطبيب فأدت العلاجات الموصوفة إلى تمكن العلة واتساع القرحة في النفس. فينظر إليه بالرحمة ويستعمل الأدوية بالحكمة وبمقدار، لأن الذي سلّمت إليه سلطة الرعاية ليرد الخراف الضالة ويشفي التي لسعتها الحية سيقدّم الحساب كله لله، إذ عليه أن يقود الخراف فلا تنساق إلى مهاوي اليأس ولا يرخي لها العنان فتنطلق إلى سبل الإباحة والاستهتار. فهو يستعمل هذه الطريقة أو تلك آناً بالصرامة والتشديد وأحياناً باللين والعلاجات اللطيفة. فيحاول بالحكمة ألاّ يصير المرض مزمناً والقرحة غير قابلة للشفاء، فاحصاً دوماً ثمار توبة الخاطئ وبحسن الدراية يقوده إلى الاستنارة العلوية. ويجب أن نختبر الحالين وندرس الخطتين معاً، أي ما يحتاج إلى الشدة والصرامة وما تقضي به العادة وأن نتبع الخطة التقليدية في أمر الذين لم يصيروا أهلاً بعد لما هو أسمى كما يعلمنا القديس باسيليوس" (القانون ١٠٢، مجمع ترولو). راجع أيضاً القانون (١٢) من المجمع المسكوني الأول والقانون (٢) من مجمع اللاذقية والقانونين (٤و٥) من مجمع أنقرة

خاص وأعمال تكفيرية، ساعد بالإضافة إلى دور الرهبنة وتأثيرها على ممارسة التوبة، في جعل التوبة ممارَسة روحية شخصية وخاصة تتمّ من خلال الاعتراف الشخصي أمام الأب الروحي، وأصبح يؤخذ بعين الاعتبار مقدرة الشخص المتقدم إلى التوبة واستعداده "لأن التوبة تُفرَض بحسب قدرة من يتقبلها، وليس بحسب حجم خطاياه" [1]، فقانون التوبة هو علاجي أكثر مما هو قضائي أو حقوقي. وهكذا لم تعد التوبة عَلَنية، بل أصبحت خاصة وقابلة للتكرار، حيث تتم من خلال اعتراف فردي يعقبه حل للخطايا

ب- معرفة الذات والإرشاد:

أصبح على المعترف أن يفحص ذاته ويراقبها بدقة ليعرف باطنه الداخلي ويكتشف أمراضه الروحية، وكان المعرِّف يساعد المعترف بهذا من خلال مجموعة من الأسئلة، ويوجّهه بعد أن يستعرض تفاصيل حياته ليسلك في حياة التوبة المستمرة

لعب الرهبان دوراً مبرّزاً في هذه الحقبة في الإرشاد الروحي ومساعدة المؤمنين في جهادهم الروحي ليعيشوا بتوبة صادقة ويطهّروا ذواتهم، لدرجة أنهم استأثروا بذلك في القرون الأخيرة من الحكم البيزنطي، بالطبع بعد الحصول على رسائل تفويض تخوّلهم القيام بذلك من قِبَل الأساقفة. وكان الرهبان - الكهنة، عادة، هم الذين يمارسون قبول اعتراف التائبين وحلّهم من خطاياهم. فإذا لم يكن الراهب حاصلاً على نعمة الكهنوت كان يكتفي بالإرشاد الروحي، وكان المعترف يحصل على مغفرة خطاياه من قِبَل أحد الكهنة

هكذا، لم تعد التوبة تُمارَس كما في القرون الأولى. ولم تعد قوانين التوبة مانعاً، بشكل حكمي، للاشتراك في الإفخارستيا، بل اندرجت في مسيرة الإنسان الروحية وجهاده المستمر الهادف للنمو في الفضيلة والانعتاق عن الإنسان القديم ولبس الإنسان الجديد المتجدّد على صورة خالقه

٥- سر التوبة منذ القرن السادس عشر:

ظهر الميل منذ القرن السادس عشر بالنظر إلى "الاعتراف" على أنه "واجب" أو "فرض" قانوني يؤهِّل المؤمن للتقدم إلى الاشتراك في جسد الرب ودمه الكريمين في سر الشكر

أثّر اللاهوت السخولاستيكي الغربي في الشرق، وترك بصماته على ممارسة التوبة وأعطاها

[1] - قوانين يوحنا الصوام (أوائل القرن التاسع)

طابعاً قانونياً. تفاعلت الكنيسة الروسية مع هذا التأثير بشكل واضح، لدرجة أن العبارة "ليصفح لك الرب" في إفشين الحل أخذت صيغة المتكلم "أنا أحلّك من خطاياك" [1]. ويظهر هذا التأثير في أشكال عديدة لممارسة سر التوبة وفق قواعد قانونية، فوجب على المؤمنين منذ القرن السابع عشر أن يعترفوا بخطاياهم أربع مرات في السنة، وذلك خلال مواسم الصوم الأربعة (الفصح والميلاد والسيدة والرسل)، ثم خُفِّض العدد إلى مرة في السنة خلال الصوم الأربعيني قبل الفصح. وقد عرفت ممارسة سر التوبة في القرن الثامن عشر فرض غرامة مالية على مَنْ لا يتقيد بالحدّ الأدنى من الواجبات الدينية

هكذا، طغى العنصر القانوني وحلّ مكان الوجه العلاجي والتطهيري الذي أبرزه التأثير الرهباني. فالاعتراف الذي كان في الفترة السابقة عنصراً مهماً من ضمن مسيرة حياة الإنسان بالمسيح ونموّه الروحي، أصبح ذا طابع قانوني جامد نتيجة التراجع الروحي والظروف القاسية التي أثّرت على حياة المسيحيين في الشرق بشكل عام

[1] – أدخل هذه العبارة بطرس الكبير بتأثير من شروحات لاتينية حول الاعتراف، نُشرت أيام البابا بولس الخامس عام ١٦٠٣م

ثالثاً: ترتيب خدمة الاعتراف في الشكل الليتورجي البيزنطي

نتكلّم عن الشكل الليتورجي البيزنطي. وهنا لا بدّ لي من التوضيح أن العائلات الليتورجية في الشرق والغرب، تشكّلت في بدايات القرن الرابع وأخذت أشكالها النهائية حوالي القرن الثامن. والشكل الليتورجي المسمَّى بـ "البيزنطي" هو الشكل الذي عرفته العبادة الإلهية في بلادنا. إنه أحد فروع العائلة الأنطاكية. كان مركزه القسطنطينية ولكنه تكوّن من تمازج عناصر شرقية، سورية ويونانية وغيرها، ولا ننسى أن القديس يوحنا الذهبي الفم الأنطاكي المنشأ صار بطريركاً على القسطنطينية (وأنطاكيون غيره آخَرون كذلك)، الأمر الذي يوضح الدور الكبير الذي كان لأنطاكية في ظهور هذا الشكل الليتورجي (المسمَّى بـ البيزنطي لاحقاً) وتطوّره

الإفخولوجي الحالي يعرض لنا ترتيب خدمة الاعتراف بالشكل التالي:

يقف الكاهن مع المعترف قرب الإيقونسطاس أمام منضدة يُوضَع عليها الإنجيل المقدس والصليب الكريم وشمعة مضاءة. وبعد أن يفتتح الكاهن الخدمة يقول طلبة من أجل المعترف، والإفشين "أيها الرب يسوع المسيح ابن الله الحي"، يسأل الله به أن يصفح لعبده الواقف أمامه عن جميع خطاياه، ثم تُتلى قدوس الله بتمامها مع المزمور الخمسين والطروباريات الخشوعية (إرحمنا يا رب إرحمنا. المجد: إرحمنا يا رب لأننا عليك اتكلنا. الآن: إفتحي لنا باب التحنن). فيقول الكاهن إفشيناً آخر "أيها الإله مخلصنا، يا من وهب لداوود"، يذكّر التائب فيه برحمة الله وأنه لا يشاء موت الخاطئ بل أن يعود ويحيا. بعد ذلك يقول المعترف تلك الكلمات "أيها الآب رب السماء والأرض" التي يؤكّد من خلالها على عزمه بالإقرار بجميع خطاياه، فيشجّعه الكاهن"أيها الأخ لا تخجل ممّا أتيت لأجله". وبعد أن يعترف التائب بخطاياه، يؤكد له الكاهن أن الله وحده الذي يغفر الخطايا "يا ولدي الروحي المعترف لحقارتي". ثم يسجد المعترف ويحلّه الكاهن من خطاياه قائلاً الإفشين "الإله الذي صفح لداوود عن خطاياه" والإفشين "أيها الرب إلهنا، يا من منح بطرس والزانية غفران الخطايا"، ثم ينهي الحلّ قائلاً "ربنا وإلهنا يسوع المسيح بنعمة ورأفات محبته للبشر يصفح لك أيها الابن الروحي (فلان) عن جميع خطاياك بواسطتي أنا غير المستحق"، فينهض المعترف ويقبّل طرف البطرشيل والصليب ويمين الكاهن ويذهب بسلام

إن مخطوطات الشكل الليتورجي البيزنطي لم تحفظ طريقة ممارسة التوبة بشكل عَلَني كما في القرون الأولى. فالخدمة التي نجدها في هذه المخطوطات تحت اسم "خدمة الاعتراف" [Ἀκολουθίαι ἐπί ἐξομολογούμενον" ἤ "ἐξομολογουμένους" ἤ "Τάξεις εἰς ἐξομολόγησιν"] تأخذ أشكالاً متعددة، وتفترض دوماً الاعتراف الفردي الحاصل من قِبَل مؤمن واحد أمام أب روحي واحد. إن الشكل الذي نجده في هذه المخطوطات لممارسة الاعتراف هو المعمول به حتى أيامنا، حيث يسمع الأب الروحي أولاً الخطايا التي يقرّ بها المعترف، ومن ثم يرشده وينصحه كي يتقوّى ويتفادى الوقوع في خطاياه مجدداً، ثم يتلو عليه أفاشين حلّ الخطايا

تحفظ المخطوطات الحديثة (منذ القرن السادس عشر وما بعد) مجموعة من التوجيهات والأسئلة يقولها الأب الروحي للمعترف بأشكال متعددة وفي مواقع مختلفة من خدمة الاعتراف. إن توافق مضمون هذه الأسئلة، من ناحية، يدلّ على مصدرها الآتي من تقليد محفوظ شفهياً في الكنيسة، أما تعدّد أشكالها من ناحية أخرى فيُعرب عن الحرية التي كان بها يرشد كل أب روحي المعترفين، كلٌّ حسب أوضاعه ومقدراته. إن محاولة تضمين خدمة الاعتراف أسئلة كهذه تَرافق مع فترة الانحطاط أيام الحكم التركي، وقد هدفت إلى مساعدة البسطاء من الكهنة للقيام بخدمتهم بشكلها الصحيح تجاه المعترفين، الأمر الذي يُظهر أهمية الإرشاد الروحي في الاعتراف

١- المجموعة الأولى من التوجيهات يقولها الأب الروحي للمعترف، قبل أن يبوح بخطاياه

مخطوط دير اللافرا رقم /105 Λ/ وكذلك مخطوط دير كونستامونيتو (Konstamonitou) رقم /٦٠/ (العائدان إلى القرن السادس عشر) يذكران أن الكاهن يتوجه نحو المعترف أولاً، ويذكّره أن الاعتراف يتم أمام الله وليس أمامه هو كإنسان، ويؤكّد له على منافع الاعتراف من مغفرة خطايا ونمو في الحياة بالمسيح يسوع: "لست مستحقاً أنا أن أتقبل اعترافك، لكن الله الضابط الكل هو يقبلك ويغفر لك جميع خطاياك، وينير قلبك بالروح القدس، ويفقّهك أن تقوم دوماً بما يرضيه، ويمنحك تواضعاً حقيقياً وطول أناة ومحبة وصبراً ووداعة، وتمييزاً في كل ما تفعله، ويغرس في قلبك مخافته، وينجّيك من كل سهام العدو، ويجعلك ملتصقاً بالأعمال الصالحة، ويقودك إلى الحياة الأبدية" [1]

---

[1] - Dmetrievskij , εὐχολόγια, 1965 . P 637

يذكر المخطوط السينائي رقم /٩٦٦/ (القرن السادس عشر) أن الكاهن يشجّع المعترف ثانية أن يبوح بجميع خطاياه وألاّ يخفي شيئاً في قلبه :

"لقد أسرعتَ إلى الكنيسة المقدسة، بمشيئة الإله المحب البشر الذي يشاء أن يخلص الجميع ويقبلون إلى معرفة الحق [١]، كي تطهّر ذاتك من كل خطيئة. فانتبه إذاً يا ولدي ألاّ تخجل وألاّ تخفي شيئاً من أفعالك فتجلب على نفسك دينونة" [٢]

وإن الإفخولوجي الحالي يحفظ توجيهاً مماثلاً، حيث يذكر أن المعترف يقول قبل البوح بخطاياه: "أيها الآب رب السماء والأرض إني أعترف لك بكل خفايا وظواهر قلبي وذهني التي فعلتها حتى هذا اليوم الحاضر. لهذا أطلب إليك أيها الديان العادل الحنون أن تغفر لي وتمنحني نعمة كي لا أعود إلى الخطيئة"

ومن ثم يقول له الكاهن:

"أيها الأخ لا تخجل مما أتيت لأجله إلى الله وإليّ. لأنك لست تعترف لي بل لله الذي أنت الآن ماثل أمامه"

يذكر مخطوط اللافرا (Λ 105) أن الكاهن يشجّع المعترف، للمرة الثالثة، للاعتراف بجميع خطاياه مذكّراً إياه أن الجميع يخطأون، ولكنهم يتعافون بالتوبة الصادقة:

"أيها الأخ لا تخجل أن تبوح بأفعالك، لأننا جميعاً كبشر نُذنب ونُجرَّب من العدو، وقد أخطأنا كثيراً ونخطئ أيضاً. لكننا نتقوّى برحمات الله، التي تغلب سيّئاتنا، إذا أقبلنا إليه بتوبة صادقة" [٣]

٢- المجموعة الثانية من التوجيهات يقولها الأب الروحي للمعترف بعد الاعتراف بخطاياه وقبل تلاوة إفشين الحلّ عليه

المخطوط السينائي /٩٦٦/ يذكر أن الكاهن يؤكد للمعترف بعد أن يبوح بخطاياه، على عدم استحقاقه هو (الكاهن) كإنسان، وعلى أن رجاءنا هو في الله الذي يمنح غفران الخطايا

---

[١] – راجع ١ تيمو ٢:٤

[٢] – Dmetrievskij , εὐχολόγια, . P 204 . راجع أيضاً مخطوط دير ديونيسيو رقم /٤٨٩/ ومخطوط دير كونستامونيتو رقم /٦٠/ (القرن السادس عشر)

[٣] – Dmetrievskij , εὐχολόγια, . P 637

للساقطين [١]. ثم يتلو أفاشين الحل على المعترف

مخطوط دير اللافرا (105 Λ) ومخطوط دير كونستامونيتو /٦٠/ يلمّحان بشكل غير مباشر إلى القانون الذي يُفرَض على المعترف:

"أتريد، يا ولدي، أن تبكي وتتوب عمّا فعلت، وألاّ ترجع إلى خطاياك! إذا حفظت من الآن طريق الرب وسلكت فيه، فإنه يغفر لك ويؤهلك للمجد في المسيح يسوع ربنا (الذي له المجد والملك إلى الدهور، آمين)" [٢]

الإفخولوجي الحالي يذكر كلاماً مماثلاً:

"يا ولدي الروحي المعترف لحقارتي. إني، أنا غير المستحق، لا أستطيع أن أغفر خطيئة على الأرض لكن الله (هو الذي يغفر الخطايا). أما نحن فبما أننا واثقون بذلك الصوت الإلهي الصائر للتلاميذ بعد قيامة ربنا يسوع المسيح من الأموات والقائل "مَنْ تركتم خطاياه تركت له ومَنْ أمسكتموها عليه أُمسكت" نقول إن كل ما اعترفت به لحقارتي وكل ما لم تقله عن جهل أو عن نسيان، مهما كان، يسامحك الله به في الدهر الحاضر وفي الدهر الآتي" [٣]

ثم يتلو إفشين الحل على المعترف

إن مخطوط دير كونستامونيتو /٦٠/ يختم الاعتراف، بعد أفاشين الحل، بكلمات الكاهن التي تؤكد على ثمار السر:

"الرب يخلّصك، الرب يحفظك، الرب يظلّلك، الرب يعضدك" [٤]

---

[١] – راجع Dmetrievskij , εὐχολόγια, . P 204

[٢] – Dmetrievskij , εὐχολόγια, . P850

[٣] – J. Goor , Euchologion Sive Rituale Graecorum , Groz , 1970 P 542

[٤] – Dmetrievskij , εὐχολόγια, . P850

خاتمـــــة

في النهاية، ومن خلال ما سبق، يبدو جلياً أن الذي اصطبغ بالمسيح هو الـــذي يـــدرك أن السيد القائم لم يره العالم أجمع بل جماعة المتألّهين فقط "لا أترككم يتامى. إني آتي إليكم. بعد قليل لا يراني العالم أيضاً وأما أنتم فترونني. إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون. في ذلك اليوم تعلمون أني أنـا في أبي وأنتم فيَّ وأنا فيكم. الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني. والذي يحبني يحبه أبي وأنـا أحبه وأظهر له ذاتي" (يوحنا ١٤:١٨-٢١). أي إن معاينة المجد الإلهي تفترض تحوّلاً جذريـــاً في الإنسان، بأن يتحوَّل من عبدٍ أو أجيرٍ أو عدو إلى صديق وحبيب لله

إن فعل المصالحة الحاصلة بسر الصليب والقيامة لا يتمّ من جهة الله فقط، بـــل بالمشـــاركة الإنسانية أيضاً. لذا، فإن الشرط الأساسي للاشتراك بسر الصليب والقيامة هو صلب الشـــهوات والانعتاق من الأنانية بالإيمان الثابت والخضوع التام للمشيئة الإلهية، فيتطهّر الإنسان من الأهـــواء ويتقدّس القلب ويستنير الذهن، ويطيع الإنسان حتى الموت، تلك الطاعة التي تتحوّل آنذاك بنعمـــة الله إلى محبة، فيتَّحد الإنسان بالله ويتأله ويصبح فاعلاً معه ومالكاً بنعمة المسيح

وهكذا، تبقى التوبة ذاك السر الذي ينسى به الإنسان ما وراء ويمتد بكل نفسه إلى ما هـــو أمام [1]، هاتفاً مع الرسول بثقة "ذاك الذي كان منذ البدء. ذاك الذي سمعناه. ذاك الذي رأينـــاه بعينَينا. ذاك الذي تأمّلناه ولمسته يدانا من كلمة الحياة. لأن الحياة ظهرت فرأينا ونشهد ونبشّـركم بتلك الحياة الأبدية... ذاك الذي رأيناه وسمعناه نبشّركم به أيضاً... وإننا نكتب إليكـــم بذلـــك ليكون فرحنا تاماً" (١يو ١:١-٤)

[1] – راجع فيل ٣:١٣